ليلة حزيرانية مطيرة

قطع التيار الكهربائي، وساد الظلام، ليس بالأمر الجديد، فهو التقنين اليومي. وبضوء الشاحن الذي بات فرداً من أفراد عائلتنا بددت أختي ظلمة الليل، ثم أحضرت كؤوس البيبسي وصحون المكسرات لتطرد ما حضر من سكون، كنت أحب الصمت الذي يطبق عند انقطاع الكهرباء، وأكره الشاحن، ذلك الاختراع الذي أفسد علي متعة الشمعة التي تخترق الظلام بلهب خفيف واهٍ، ولكن لم يبق شيء من جمال الصمت مع مكسرات أختي وأحاديث أمي، وتلاشت المتعة مع الشاحن والواتس أب. ومثل كل مساء، بدأت أصوات إطلاق رصاص يشنف آذاننا، ويلتهم شيئاً من حديثنا، ولكن المختلف في هذا المساء هو أن أصوات الرصاص بدأ يكثر بشكل غير معهود، ومعه تسلل الخوف إلى قلوبنا، وخاصة عندما اقترب الصوت أكثر، بل إنه لم يقترب، إنما بدأ ينطلق من كل حدب وصوب، صاحت بنا أمي: "هيا إلى الممر تعاليا"، لاعتقادها أن الممر هو أكثر الأماكن أمناً في المنزل.

هرعنا إلى الممر بأرجل مرتجفة، ووجوه شاحبة، تتخبطنا أفكار وصور القتل والتهجير.

اشتد الصوت أكثر، فقالت أختي: "لنجلس أفضل"، جلسنا على الأرض، وبدأت أمي تلهج بالدعاء: "يا لطيف الألطاف نجنا مما نخاف"

قالت أختي: "لو نعلم ما الذي حدث على الأقل"

نظرت أمي بخوف إلى السماء وقالت: "إنها الساعة التي يعدوننا بها منذ زمن"

تذكرت مصطلح ساعة الصفر الذي ظهر في هذه الأزمة، والكل يستخدمه، والكل يتوعد بهذه الساعة، ونحن خائفون من رصاص يخترق ظلامنا قبل أضلاعنا، لا ندري لأي ساعة صفر ينتمي هذا الرصاص،

- "أتراهم داعشاً أم الجيش الحر قد جم علينا"

إذن اختي قررت أن ساعة الصفر هذه للطرف المعارض.

قالت أمي: "وما الفرق عندك"

- يقولون إن داعشاً لا تقتل النساء إن التزمن بيوتهن أما الجيش الحر فسيقتلنا

سمعنا كثيراً في هذه الأحداث عن القتل، لذا لم نعد نعلم من يقتل ومن يقنص ومن يقصف ومن يلعن أنفاسنا، والصوت يكثر ويشتد، وأمي تلهج أكثر بالدعاء: "اللهم إني استودعتك ابنتي هن أمتان من إمائك اللهم نجهن من الكرب والبلاء.. استغفرا استغفرا فلا يرد الأقدار إلا الاستغفار"

أمي نسيت نفسها من الدعاء، ألا تريد أن تنجو بنفسها، صوت الرصاص في مدخل بيتنا ينزع من رعبنا صرخة أو صرختين، لا أدري إن كنت قد صرخت أم لا، كيف صرخت؟ كم مرة؟ وهل كان صوت الصراخ مني أم من أختي؟ أم منا؟ ولكن لا أعتقده من أمي التي ضمتنا إليها، "اهدأا فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ولا تحزنا فإن الله معنا ولن يخذلنا" ومضت في التسبيح والدعاء ويرتفع صوتها بالدعاء أكثر كلما اشتد الرصاص، ولا أدري لماذا كان صوت دعائها يخيفني

أكثر بدلا من أن يهدئ من روعي، شعرت بأنها النهاية، نهاية ماذا؟ بل هي البداية.. بداية ما عاناه كل من عرفت.

قالت أمي: "أحمدك اللهم وأشكر فضلك حمداً لله أن أخيكما قد سافر"

قالت أختي: "ليتنا نستطيع السفر أيضاً مثل كل الناس"

السفر برأيها هو الحل، ربما.. تنوعت الأسلحة المستخدمة في المعركة، فالأصوات مختلفة متفاوتة في الشدة والقوة، ولكن ما ميزته من بين الأسلحة هو المسدس، وأظنه للجيش الحر، ولم أكن أود أن أقول ما بداخلي كي لا أخيفهم، غير أن أختي باحت به وأومأت أمي موافقة لها على كلامها، فعلمت أن ظني ليس مجرد ظن، وأن من هجم هو الجيش الحر، فموعدنا قريب مع القصف والحصار والتهجير إن لم نقتل. انهارت نفسي كلياً عند دمعة أمي وهي مازالت تصعد أدعيتها.

سمعت صوت هاتفي يرن في غرفتي، قالت أمي: "لا تذهبي ابقي هنا"

قلت: "بل أريد أن أرى من ربما هناك من يريد أن يطمئن علينا من أقاربنا"

أحسست بثقل في قدمَي، بالكاد استطاعتا حملي، مشيت إلى الغرفة، ولكن صوت الرصاص على النافذة جعل أمي تصرخ: "امشي على ركبتيك أخفضي رأسك" ولا شعورياً مشيت حبواً إلى الهاتف، أمسكته بيدي فوقع مني، فأمسكته بالاثنتين وفتحت الخط ووضعته على أذني، جاءني صوته مباشرة: "حبيبتي لا تخافي إنه احتفال بفوز سيادته في الانتخابات"

صوته وحده يكفي ليدخل الطمأنينة في قلبي، ولكن الخبر الذي زفه إلي أصاب أطرافي بالشلل، بل أظنه دماغي هو الذي أصيب بالشلل وتعطل كلياً، وأحسست باللاشيء،

- وكيف عرفت؟
- الرصاص انطلق في كل مكان أما المسيرة بدأت من قربنا، وبعد قليل ستسمعين صوت الهتافات.
- أي هتافات؟

- ما بالك؟ هتافات المسيرة.

ترددت أنفاسي وتنهدت بشكر له، ولم أشأ أن يغلق السماعة ولكنه فعل، ذهبت إلى أمي التي كانت ترفع يديها عالياً بالدعاء، قلت:

- أمي ربما عليك تغيير الدعاء فالأمر ليس كما ظننا.

- كيف

فأخبرتها النبأ العظيم، إلا أنها لم تصدق، وكيف تصدق؟ حتى أنا لو لم يكن هو الذي أخبرني لما صدقت، إلى أن جاء صوت المسيرة فعلاً، (الما بشارك مافي ناموس) قالت أمي: "يشارك في ماذا" قلت لها: "قلت لك يشارك في المسيرة الاحتفالية"

نظرت بعينين باردتين تملأهما الدهشة، انفلتت من فيها كلمة "حقاً؟" لم أهتم للجواب بل رحت أبحث عن الناموس، فوجدت قليلاً منه عندي، وودت أن أشارك، ولكن شؤبوباً من المطر الحزيراني بلل الناموس، ومنعني من الخروج.